



سيفونية للوطن

– كان مصدرهما ... خوفهم من بطش الحكومة انتقاما من قاتلي « وزير الداخلية » الذين قيل أنهم يسكنون حيننا ، او في احد الاحياء المجاورة لنا . ثم سمعنا همسات اهالينا ... ان الكلب – كانوا يقصدون وزير الداخلية – يستحق ذلك منذ زمن بعيد .. استغربت يومها . وحاولت ان افكر بالامر ، وانا جالس تحت شجرة التوت المزروعة في صحن دارنا الكبيرة ، حيث يتزاحم في كل غرفة من غرفها الصغيرة افراد عائلة لا يقل عددها عن سبعة اطفال ما عدا والديني . فلم تمر لحظات على ذلك حتى نسيت الامر كله . فحملت كيسي وخرجت ابتغي اللعب .

نعم . ما زلت اذكر ذلك اليوم بتأثر بالغ نابغ من اعزازي بان في حيننا بعضا من ابطال هذا البلد ايضا .

الحركة الثانية :

بدأت تجربتك بشكل مهمل اول الامر .. التدريس في الريف . اي القبوع بين جدران غرفة طينية مدة خمسة ايام ، ونصف اليوم ، ثم عودتك في النصف الثاني من اليوم السادس الى المدينة . وممرت الايام ، والاسابيع . فبدأت تعناد الامر . وراحت نفسك تتأقلم مع المحيط الذي حولك شيئا فشيئا . وتكتشف بعض الجوانب الجديدة في حياتك ... منها :

احتفاء اهل القرية بك اينما حطت .

الاصفاء التام لاحاديثك .

نباري آباء اطفال القرية بدعوتك الى منازلهم للفقور حيننا .

او للعداء ، او للعشاء .

وجود فتاة مثل « شمس » .

كل هذا لون حياتك بطابع جديد . رغم خشونته .

« شمس » فتاة تبلغ الخامسة عشرة من العمر . قمحية الشعر

المائل الى الاصفرار . جميلة الوجه ، والعينين بشكل لا يوصف . رغم

نحافة الوجنتين ، ونحالة الصدر ، والسعال المتقطع ... كانت كتلة

من الحركة . لا تقف في مكان ما . تراها تثب كالظبية البرية . دائمة

الضحك . سريعة الصمت . وعندما يحاول انسان ما ... اسماعها كلمة

ناعمة لم تعود اذناها على سماع امثالها بعد تفمرك بيسمة مشعة . ثم

تفر كطائر صغير ملون . وشعرها القمحي الاصفر يتماوج على ظهرها

المضموم برهافة ، ودقة بالقين .

ما اكثر الليالي التي سهرت فيها طويلا ، بعد ان تكون النيران قد

اليس : ... انظري ، لقد ذهبت الشمس .
كريستينا : ستعود مرة اخرى ، وستبقى فترة اطول في
المرّة القادمة .

اليس : هذا صحيح . فالنهار أخذ في الطول ، والظلال
في القصر .

كريستينا : نحن نتحرك نحو النور يا اليس
(سترندبرج – عيد الفصح)

الحركة الاولى :

عندما كنت في الصف الرابع الابتدائي ... اذكر صباح ذات يوم .
لم تجر الامور في مدرستنا كما تعودنا . انما جرت بشكل آخر لم نعتده
سابقا . فلم نر العصي في ايدي الاساتذة . انما حل بينهم حوار اشبه
بالهمس محل الصراخ اثناء تخاطبهم . ومحل القصب ، والنزق – وهم
يشتمون هذا التلميذ او ذلك – شيء من التروي والصبر الفاضلين
... السخ . وكالعادة – راحت صفوفنا تنتظم الى جانب بعضها في
ارتال منسقة . ثم تعالت ايعازات الاستراحة ، والاستعداد بصوت هادئ
رخيم . بعدها رأينا تسرب وجوه جديدة من الادارة الى المنصة . وجوه
جامدة كاللوت . فساد الصمت بيننا ، وبينهم مدة من الزمن . ثم رحل
متباطئا عندما «كج» احدهم واستعد للقاء كلمة ما ...

لا اذكر فحوى الكلمة التي القاها يومها علينا . ولكن الشيء الذي
اذكره تماما لهجته ... كانت لهجة تقدير ، واحترام بالقين . تكلم عن
شخص بارز – اعتقد انه لقبه بـ « وزير الداخلية » فاخبرنا ... ان
يدا آتمة مجرمة . فد اغتالته مساء البارحة – اي مساء يوم من ايام
اوائل عقد الخمسينيات – ثم عدد مناصب « وزير الداخلية » وخدماته
التي اسداها للوطن . وبنائير بالغ انهى كلامه بآي الذكر الحكيم : (ولا
تحسين الذين قتلوا في سبيل الله امواتا . بل احياء عند ربهم يرزقون)
صدق الله العظيم . ثم تراجع الى الوراء . بينما راح احد اساتذتنا
ينزل العلم عن ساريته ونحن صامتون دقيقة حداد . ثم امرنا بالانصراف
دون ضجة ... واعتبروا ذلك اليوم يوم عطلة لمكانة « الشهيد » لدى
الدولة .

كانت فرحتنا كبيرة ، عندما سمعنا بيوم العطلة ، فهرعنا كل الى
بيته نعلم اهالينا بالامر ، ونحن نتواكب فرحين .

ولكننا فوجئنا بالقلق ، والاضطراب المرسومين على وجوه اهالينا

خمدت في الكانون ، حيث لم يبق غير الرماد البارد ، الهش المتكسر و انتت تتسائل : « يا فراغة هذه الفتاة ! » . لم يكن جمالها هو الذي يصفى عليها تلك الصفة ، إنما شيء آخر ، شيء يشبه السحر لا يشدها ابى عائلنا ... إنما الى عالم اسطوري تلفه الالوان وطيات الاخضرار الشفافة ، وأشياء أخرى جميلة مجهولة .

وتساءلت مرة أخرى : « هل يكفي ان تضرب ابن المختار السني اعترض طريقها حتى يجن بحبها دراويش القرية كلها ، شبابا كانوا ام اطفالا ام عجائز من نساء ، وشيوخا ؟ » .

تذكر كيف كان اهالي القرية ، عندما كانوا يذكرونها في حديث ما ... يذكرونها بشيء من الثقة ، والامل ، والاجلال .. وحتى القدسية اصف الى ذاكرتك تفاصيل الحادث عندما راحت تسرد عليك عملية ضربها لابن المختار بلهجة عذبة . لم تطرق سمعك ابدا ... كان صوتها غائرا رفيقا ، يحمل بين طياته اكثر من اثر يشدك اليه بقوة ، وبأسرك بخيوط ناعمة ناعمة . فلا تحس بشيء من حولك ابدا ، فقط تراها امامك تتحرك .. تصحك .. تطرق خجلة .. ترفع رأسها بكبرياء .. تنظر بصفاء مزيج بالحلم والهدوء .. تركز هنيهة الى الحنان ، ثم تنابع :

« عاد عصرا من المدينة كالدبك الرومي . نفش ريشه في صباح اليوم التالي على ارض البيادر - ظن لكونه ابن المختار - انه يحق له المطلق . فاقترب صباحها مني . وقال : « صباح الخير يا شمس » . « صباح الخير .. » . وظللت اتابع طريقه مع بقية الفتيات اللواتي ضحكن ، وهن يخفين وجوههن بين الزهور ، والورود المنتشرة على انوابهن فتجرا واقترب مني ، ثم حاذاني في سيره ، ومد يده الى جرة الماء التي على كتفي . وقال : « دعيها عنك ... » واثناء ذلك تقصد لمس تديبي . فما كان مني الا ان انزلت جرة الماء عن كتفي . وانا اضحك . صفتته بقوة . ثم بصقت في وجهه . ثم شتمت اجداد اجداده .. فسمر في مكانه مذهولا لا يعي ما حدث ، ويده على خده المصفوع . وقبل ان ينتصف النهار . كان قد عاد الى المدينة هربا من العار الذي لحقه .. » .

كانت تحذرك بلا كلنة ، بلا غرور ، كأنما تسرد لك امرا عاديا جدا . لقد حاولت اكثر من مرة سؤالاها :

« شمس .. ألم تخافي ضربه ، خاصة وابوه مختار للقرية يمكنه وضع كثير من المشاكل في طريق والدك الدرويش الرقيق الحال ؟ » . ولكنك لم تسألها ، لان القرية كلها قد اجابت على تساؤلك على مر الايام . فكان كرههم لمختار ، وغضبهم عليه يبرز لك من بين طيات احاديثهم العابرة عنه . وهم يكحون . ثم يبصقون امامهم . ويبصقون .

الحركة الثالثة :

ماتت « شمس » في صباح مشرق نير .

ولم يصدق الخبر ...

كان السعال قد اشتد عليها ، في ايام الاشهر الثلاثة الاخيرة ، فنوى عودها حتى باتت جلدا على عظم ... ولكنها ظلت محتفظة بملامح جمالها العميق .. بمرحها .. بشاعرية حديثها . ظلت رغم امراض شعلة من الحركة لا تهدأ ، ولا تترك .. كان الطبيب قد طلب من والدها اجراء معاملة لادخالها المصح سريعا . في هذه النقطة ، كان والد شمس يشعر بالمرح حارق كاو ... لان اجراءات المعاملة يجب ان يصدق عليها المختار ، ويوقع ، ويختتم ، وينهي بعض اوراقها .

ماتت « شمس » . ولم يصدق الخبر مرة ثانية ...

كان المختار يراقب تطورات الامر عن كثب ، مبهتجا ، لان ساعة الانتقام للعار الذي لحقته « شمس » به وبابنه قد حان وقتها . فكان كثيرا ما يسأل والد شمس عن صحتها ، ثم يدنو لها بالشفاء العاجل .

شعر ببرودة الخير الفارسة بعد ان تيفن من صحنه تسري فسي اطرافه المتلجة ، وبخدره ...

تنهد والد شمس ، عندما انتهى من سرد امر المعاملة مع المختار ، فعلق الاخير :

« أنا تحت امرك يا أبا شمس ! » .

قام من فراشه ، وهو لا يعي شيئا مما حوله ، غسل وجهه ، نشفه بحركة آلية ، ثم نهالك ثانية على الفراش .

مر يوم بعد يوم ، والمختار يتهرب من اجراء المعاملة ، ويلقى :

« أنت تصرف يا أبا شمس ، انني احاول كل ما في وسعي . ولكن ايام زمان انتي كان لنا كلمة مسموعة لدى الحكومة فد راحت ، وولت ... فالايوم نست سوى مختار مسكين . ومثل هذه الامور لم أعد بقادر عليها » .

ويفرق في التنهد متحمسا على ايام المختره في ظل عابدين آغا ، وسيادة القايمقام عز الدين بيك ، و ...

لم يقو على الخروج . وقف بالباب ، والزمن الحزين يتابع تدفقه في ذاته . وشمس الساعة السادسة الصباحية تتلألأ فوق المساحات الخضرة المحيطة بالقرية . لم يكن بالصباح البارد ، ولا بالدافئ ... كانت القرية كلها تتجمع مع السواد امام باب والد شمس . فلم يستطع الثبات في مكانه . خرج يبغني المدرسة .

كان التلاميذ صامتين ، مطرفين . وكان حديثهم همسا ، يحمل بين طياته حنين الذكريات ، وعذابها .

وقف في باحة المدرسة . ومسح ما حوله بنظرة شاردة أليمة ... جدران المدرسة الطينية . شجرة السرو العتيقة الجذع . العلم المحو الالوان ، الممزق الاطراف . الملقوف على ساريتيه . قطرات الماء المتباعدة في تساقطها . ذاته الحزينة المغرورة بحروف الفجيع السواد .

رفع رأسه الى صفوف التلاميذ ، وأرتالهم تنتظم امامه . تأمل وجوههم المكسوة بحزن غريب رقيق ... ظل في وفته يحدق في عيونهم الصامتة ، ولسانه مثقل بكلام كثير كثير مبلل بالفضب وبالذ ...

أشار الى عريف الصفوف المناوب - بعقد موت غضب ، وولادة غضب جديد في ذاته - أشار له ان يصعد الى مقدمة مبنى المدرسة . وينزل العلم عن ساريتيه .

استغرب العريف ... ولكنسه هرول لتنفيذ الامر . عندما رأى نظرة حازمة في عيني الاستاذ الفاضل .

صعد السلم الخشبي العتيق ، أنزل العلم بيد غير مدربة عن الساري الذي بقي عاريا يعاني الوحدة .

اشار الى العريف ان ينتظم مع بقية التلاميذ في الرتل ، وان يقف الجميع بلا حركة ، او صوت ، مدة دقيقة واحدة .

ومرت الدقيقة بطيئة ... تدفقت خلالها ذكريات قديمة فسي نفسه . بكأوه ، وهو صغير ... غضبه عندما كان يفقد شيئا عزيزا عليه . أراد ان يقول شيئا ما .. يتكلم فيها عن .. عن .. عن .

وانتهت الثواني الاخيرة دقيقة الصمت ، والحداد . ولم يستطع ان يرتب في رأسه الملتهب بغفوة الغضب حتى جملة واحدة . فعصر الدفتر بين يديه . ثم قال بصوت غائر اول الامر :

- انصرف . اليوم عطلة ...

ظل التلاميذ في أماكنهم للحظات . ثم استدار كل واحد منهم في مكانه مطرق الرأس . وجر نفسه ... لم يتواثبوا كعادتهم . ساروا متفرقين ، ثم انتظموا في جماعة واحدة . وتسربوا داخل الحصون ، والنشيج المخيم على دار والد شمس .